

أبو حنيفة
بطل الحرية والتسامح في الإسلام

تأليف الأستاذ عبد الحلیم الجندي

عرض وتحليل

الأستاذ سمير صخرة ومكرم المحامی

لا يكاد الأستاذ الجندي يفرغ من مقدمته القصيرة ، حتى يعلن نبأ قدوم (الرجل) .
وإنه ليفعل كما يفعل المذيعون في استقبال عطاء الرجال : فلا يفوته أن يرصد حركاته
ويصورها . لقد : (أقبل السيد في ثودة ورزاة ، طويل القامة ، معتدل السميت ، عظيم
المهابة ، حسن الطلعة واللحية ، تعلوه سمرة ، وفي وجهه أثر من السجود ، لا يتلفت
إذا مشى يمنة أو يسرة ، يضرع المسك من أردانه على القرب وعلى البعد ... عليه بزة
فاخرة تباهى بزوق صاحبا في قاشها و طرازها ... تعلوه فلسوة طويلة سوداء ...
لأنه النجمان بن ثابت المسكني بأبي حنيفة . الرجل الذي أعلن الحرية في كل مكان وفي
كل زمان ، في الماضي والحاضر والمستقبل ، وفي التجارة ، وفي الملك ، وفي التصرفات ،
وفي حقوق النساء . وفي حقوق الرعية ..) 11

وبعد أن يحس الأستاذ الجندي أن كلماته المصورة قد حركت قلوب قرائه وعقولهم
إلى لقاء هذا الوافد الجليل . يمتضى في استعراض لمحات من حياة (الرجل) لتستوى
صورته الجسدية والنفسية أمام قارئه ناطقة الملامح والسمات .

لقد كان أبو حنيفة منذ صباه متوقفاً للذكاء بأدى الامعية حتى ليناشده الإمام
الشعبي أن يختلف إلى العلماء . فلا يلتفت الفتي أن يقبل على حلقات علماء الكلام . يأخذ
عنهم ويحادلهم حتى يهيئ بأصول عليهم ومناهجهم ولكنه يحس في أعماقه نزوة آراءه
إلى ميدان آخر أثبت المستقبل أنه أولى الميادين بعقيدته . وفي خلقة أبي إسماعيل حماد
بن سليمان يجد ما يطمح إليه فينظم في سلك تلاميذه (يحفظ مسائله ويعيدنا في الغداة

فيخطئ الحفاظ ويصيب هو . ويسكت التلاميذ ويسأل هو . ويلج في الجدل حتى ليحمار وجه حماد) . . . وحين لحق حماد بالرفيق الأعلى . وانتهت زعامة الحلقة إلى أبي حنيفة (وغدت أعظم حلقة بالمسجد . وأوسعها في الجواب . وانصرفت وجوه الناس إليه . وأكرمه الحكام والأشراف) لم ينس كل أولئك فضل أستاذه وذكر ياته معه حتى ليقول : (اني لأعود لحمد مع أبوي) ١ . ولقد أسلف له حماد هذه العاطفة وهذا الود يوم سئل بعد غيبة طويلة عن الكوفة : إلى أي الأشياء كان أشوق قال : (إلى أبي حنيفة ، ولو أمكنتني أن لا أرفع الطرف عنه لفعلت) ١ .

ولم يقف وفاء أبي حنيفة عند أستاذ يعرف له فضله ، أو قريب يصل رحمه بل (كان جم الوفاء لجيرته وعشيرته) البر منهم والفاجر ١ ! ولم يكن بر أبي حنيفة بالناس مجرد مجاملات حانية أو كلمات طيبة ، بل كانت يده أسبق بالخير من كل جوارحه : (ذلك تليذ يسد خلته ، وتلك امرأة ذات خصاصة ، وهذا فقيه في أسوأ حال . . إن مال أبي حنيفة إن لم يكن لهؤلاء وأشباههم فلا كان المال . . وإذا أنفق أبو حنيفة على عياله نفقة فليصدق بمثلها ، وإذا اكتسب ثوباً جديداً ، فليكس بمثل ثمنه الشيوخ والعلماء) .

وما أطرف قصته مع أمه . وما أبلغ دلالتها ١ ! أقفاها يوماً في بعض شأنها ، فلم تظمن إلى فتواه ١ ! وأبت إلا أن تستغنى (زرعة القاص) ١ ! خملها راضياً إليه . . . وحين يستحى زرعة من أن يفق أم فقيه الكوفة وهو بالكوفة يسر إليه أبو حنيفة أن أفتمها بكذا . فيفعل زرعة . ويعود بها أبو حنيفة راضية مطمئنة . وهو أيضاً راض مطمئن إلى بره بأمه حتى ولو سفهت رأيه ١ ! بل إنه ليحملها آميالا إلى دار عمر بن ذر (ليصليا التراويح خلفه . وليستمعا إلى وعظ ذلك الزاهد الجليل) . . (فأى رقة — كما يقول الأستاذ الجندی — تفيض من هذا القلب الكبير . . وأى دار كنتلك الدار يشيع في أجوائها الزهادة والتبذل والإيمان . وأى ذوق كذلك الذي يتلص على هذا النحو رضا السيدة التي حملته وأرضعته وقدمته هدية فاخرة للوجود) ١ ! وبعد أن يفرغ عبد الحلیم الجندی من رسم الخطوط السريعة لصورة أبي حنيفة ، يقبل بذوق الفنان ومواهبه على أحداث حياته ، ينتقى من ألوانها ما ينجلو ملامح صورته ، وما يعكس على هذه الملامح كثيراً من إصالة الفن وحرارة الحياة : فأبو حنيفة كان (تاجراً صناعته الفكر ومسكراً يعمل بالتجارة) . . . وإذا كانت دنياه لم تشغله عن آخرة فإن الآخرة أيضاً لم تنسه دنياه (فلم يكن ممن يجلسون إلى

الأرض ويرفعون أركف الضراعة إلى السماء ؛ فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ،
أو يمدونها إلى الأمراء ؛ فإن مال الأمير ثمن لنفس العالم) . والتجارة عند أبي حنيفة
ليست شيئاً تأباه طبيعة العالم ، ما دامت قائمة على الصدق والأمانة والقناعة .
(وهكذا دخل السوق مدخلاً كريماً ، فأضحى فيه من المجدين والمجدودين ؛ اختار
لذلك مكاناً من أبرز أمكنة الكوفة ، في دار ليست هيئة على التاريخ ؛ هي دار
عمرو بن حريث) . . (وإنك لتتصور الذوق في ترتيب دكانه بما كان عليه في خاصة
شأنه ؛ حسن هيئة وبزة وتفكير وتعبير . . بل إنك لتسكاد رغم بعد هذه القرون
والمسافات تنسم العطر يتأرجح من أردانه ، وزوايا دكانه ، وتصور النساء إذا أقبلن
أو أدبرن بائعات أو مشتريات يغضضن من أبصارهن ، ولا يبدين زينتهن ، يدلفن
إلى الدكان كأنما يفدن إلى الدرس ، ويفصلن عن دار بن حريث كأنهن يفصلن عن
المسجد الجامع ، وكأنما كن من الدكان في محراب) ! !

بعث إلى شريكه حفص بن عبد الرحمن بمناع فيه ثوب معيب فباعه بثمان كامل ،
وبسوء أبا حنيفة هذا الصنيع ويأبى إلا أن يرد إلى الرجل ما غبن فيه ، فلما أعياه
البحث أنى مرة أخرى إلا فصلاً عن صاحبه والتصدق بثمان هذه البضاعة تخرجاً من
أن يتطرق إلى ماله حرمة بل شبهة حرمة ! ! وبعد أن تنفض هذه الشركة المبار
يقول عنه حفص (جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والذاك
وأهل الورع منهم فلم أجد أحداً أجمع لهذه الخصال من أبي حنيفة) .

ولم تستحوذ دار ابن حريث على كل نشاط أبي حنيفة واهتمامه ، وما كان في وسعها
أن تحتضن عبقريته وفي الكوفة مسجدها الجامع أو جامعة الكوفة ؛ فقد كان
أبو حنيفة يقضى (في المسجد) جل أوقاته وأجلها . . (هذه حلقة مسعر بن كذا
للقرآن والحديث ، وتلك لابن شبرمه يقضى ويفتى ، وتلك لحمد بن عبد الرحمن بن
أبي إميل قاضي الكوفة ، وتلك حلقات أخرى للشعر أو للرواية أو للأدب واللغة
ولحفظ القرآن أو لذلك كله مجتمعاً) . . . (وكانت إلى حوار تلك الحلق في جامع
الكوفة حلقة أخرى تحف بأبي حنيفة النعمان ، لا يقبل إليها من صومعة أو خلوة .
ولكن من سوق الكوفة . أو دار ابن حريث أو من داره . أو من أسفاره .
أي من صميم الدنيا) .

ولقد كان لمدرسة أبي حنيفة هذه منهجها وطابعها وتقاليدها . ولعل من أجل سماتها
حرية الفكر المكفولة للأستاذ والتلميذ على السواء حتى ليقول عندما يفرغ من بيان

رأيه (رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا) ١١ (يريد تلاميذه — كما يقول الجندی — على أن يتعلموا الحرية معه ليسكونوا أحرارا مع غيره ، فلن يتعلموا الحرية في التفكير إلا إذا مارسوها في التعبير ، ولن يتعلموها مع الناس إلا إذا تعلموها مع الأستاذ وهو عندهم خير الناس) .. ومع هذا المنهج الحر في التفكير والبحث لم تكن مدرسة أبي حنيفة متعجلة للغايات على حساب ما ينبغي للبحث العلمي من أناة وصبر وأمانة ، فها أكثر ما يطول البحث بهم (في المسألة الواحدة أياما وليالي أو شهر أو أكثر من شهر) حتى إذا انتهوا فيها إلى رأى يطمئنون إليه هملوا مستبشرين مسكرين ١٢ (لقد كان وجه العلم لديهم — كما يقول الجندی — هو وجه الله — جل شأن الله — يولون وجوههم شطرا في المحراب أو في حلقة أبي حنيفة) .

ولقد كان التسامح من أبرز أصول مذهب الإمام (المفكر) ؛ (تسامح بين الإنسان وأخيه الإنسان . وتسامح بين المخلوق والخالق .. ثم حرية في الآراء والأشياء لا يحدها إلا العقل والعدل وعمارة الدنيا) .

ففي العصر الذي كانت تموج فيه البصرة بألوان عجيبة من الأفكار والعقائد والجدل التزم أبو حنيفة جانب القصد والتسامح ؛ فإذا غالى الخوارج في مسألة الإيمان فمقالوا أن لا إيمان لمن لم يعمل ما أمر الله به أو قارف ما نهى الله عنه ، واندفعوا يكفرون مرتكب الكبيرة ١٣

وإذا تريت المعتزلة شيئا ما وقالوا بالمنزلة بين المنزلتين ، فلا هو بالمؤمن ولا هو بالكافر بل هو بين بين أو هو فاسق فإن أبا حنيفة لا ينحرف إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . بل يلتزم منهجه فيقرر أن (الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) أما العمل فشيء آخر غير الإيمان ، إن أدام المكلف ففضل من الله ونعمة ، وإن لم يفعل ما أمر الله به أو ارتكب ما نهى الله عنه فهو مؤمن مقصر أو مخطئ أو مذنب ، إن شاء الله عذبه بذنبه وإن شاء تاب عليه وعفا عنه (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

ولئن كانت العلوم من طب وفلك وفلسفة ورياضة ومنطق الخ قد نهلت من منابع غير عربية كالفارسية واليونانية والهندية فلقد كان الفقه ابن بيته العربية الخاصة (ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت تهتف بها غربتها أن تخلد نفسها ، وأيست سبيلها إلى ذلك التخليد عمارة أو نحتا أو تصورا كما صنع الرومان والمصريون والبيزنطيون ،

فتلك كانت مفاخر دون معجزة الأمة الإسلامية التي يحتويها كتابها من شريعة وعقيدة ،
وكان طبيعياً أن تندفع مواهب الأمة الكبرى نحو أول مقومات الإسلام وهو
الشريعة .. وبهذا تناهت إلى حلقة الكوفة أصوات الفقهاء السابقين والمعاصرين
فرددوها بلسان الزعيم الفكري الذي قدرته العناية الإلهية لنصرة الدين .

وكان من الطبيعي أن يفرض هذا التسامح وهذه الحرية إلى الأخذ بالقياس كأصل
من أصول الشريعة وكان أبو حنيفة فارس هذا الفتح الفكري الخطير (لم يتردد عن
أن يقول : أرى ، وأرى ، ويحكم على المستقبل ويرفع حماء الفقه على عهد الحرية .)
وإذا كان قد عرف عن بعض خلفاء بني العباس شطط في السياسة ربما جنح بهم
أحياناً إلى العنف والتسوية فإنهم كانوا مع هذا حريصين على أن يلب القضاة في دولتهم
ذو العلم والورع وكان طبيعياً أن يطلب أبو جعفر إلى أبي حنيفة حمل أمانة القضاء
ويشفق أبو حنيفة من أن ينوء كاهله بهذا العبء الخطير فيعتذر متلطفاً عن قبول
المنصب الكبير فيأبى الخليفة مصراً ، وإذا أبو حنيفة هو الآخر يصصر على الرفض
وتكون أزمة بين عملاقين ، عملاق السياسة ، وعملاق الفقه ، يحلف الخليفة ليفعلن
فيمحلف أبو حنيفة ألا يفعل ١١ وإذن فايزج بأبي حنيفة في السجن ، ويدربه زبانية
القصر في الأسواق ، ولا يضرب بالسياط على مرأى من الناس ومسمع ثم لتحدد إقامته
في منزله ولا يؤذن في الجلوس إلى الناس وقتواهم (وهكذا حبس الرجل الذي ظلت
الحرية نصف قرن اسماً هو مسماه ، والذي عاش سبعين عاماً يصنع الحرية بيده صنعا ،
ويخلقها خلقاً في تلاميذه وتعاليمه) .

وتشاه الأقدار أن تكون هذه الفتنة آخر عهده بالدنيا فما لبث أن انتقل
— رضى الله عنه — إلى الرفيق الأعلى ١١ .

وبعد فقد أحسست عند قراءة كتاب عبد الحليم الجندى عن أبي حنيفة حرارة
التعبير الصادق عن النفس إذ تؤمن بموضوع البحث وتحشد لدرسه وإخراجه ، حتى
لتخال بين الرجلين صداقة جميلة .

وإذا كان الدكتور طه حسين قد أهاب به يوماً أن (يفرغ لدرس الشافعي كما فرغ
لدرس أبي حنيفة) فإننا نطمح منه في أكثر من ذلك ، نتمنى أن لو وفق عبد الحليم
الجندى إلى درس الأئمة الأربعة . فإن قلباً — كقلبه — على هذا الثراء في العربية
وعلى هذا التدقيق في الموضع وحرك الموضع الجدير بأن يفيض — قادراً —
الرسالة الجميلة .